د. محمد رجب النجار

حكاية الشطار والعيارين في التراث العربي

مراجعة : يوسف عبد الله محمود(*)

في حياة الأمم والشعوب فترات تاريخية قاسية ، يختل فيها الأمن ، ويستشري الفساد ، ويسود القهر الاجتماعي ، وتصادر أبسط الحقوق الطبيعية للانسان . . في مثل هذه الفترات المريرة من التاريخ الانساني ، تشتد التناقضات الاجتماعية والاقتصادية بين أبناء المجتمعات الانسانية ، فتبرز فئات معينة تلتهم قوت الفقراء والمتعبين من الناس ، واصلة مصالحها بمصالح الطبقة الحاكمة . . .

. . من هنا ندرك سر انطلاق شرارة كثير من الثورات الاجتماعية عبر عصور التاريخ المختلفة . . . ومهما اختلف المؤرخون في تسميتهم لهذه الثورات ، فإنها تظل مؤشراً حقيقياً على الصراع الاجتماعي الذي عانت وتعاني منه المجتمعات البشرية ، نتيجة امتلاك شرائح اجتماعية معينة للثروة الاقتصادية ، وحرمان أوسع القطاعات من منافعها . . .

وكما يحدث في مثل تلك الظروف ، فإن أساليب القهر الاجتماعي تمارس بحق هذه القطاعات الاجتماعية العريضة خشية أن تثور أو تتمرد . . وما أكثر الثورات الاجتماعية العادلة التي أجهضت ، وهي على وشك أن تؤتي أكلها ، بفعل قمع

(*) المدرس بوزارة التربية .

وارهاب السلطة السياسية . . . والمؤسف أن كثيراً من المؤرخين الذين كتبوا عن تلك الفترات ، أدانوا مثل هذه الثورات بدعوى أنها ثورات قام بها الغوغاء والخارجون عن القانون !! . .

ولكننا وقد تعرفنا اليوم مبادىء ومنطلقات تلك الثورات التي ظلمها هؤلاء المؤرخون ! لا يسعنا إلا أن ننحني إجلالاً لها لعدالة الأهداف التي ناضلت من أجلها . . .

. . . ولقد شهد تاريخنا العربي منذ العصر الجاهلي حركات شعبية ، عبّرت عن نفسها بالتمرد على قيم المجتمع الطبقي ، وبالخروج عن طاعة السلطة السياسية آنذاك ، لانها لم تنصف ذوي الحاجات من الناس . .

ونتساءل : ترى هل كان قادة تلك الحركات أناساً ـ كما صورهم عدد من المؤرخين الذين عاشوا في تلك العصور ـ بلا قيم أو مثل ؟ هل ثاروا طمعاً في احتواء السلطة السياسية أم أن ثورتهم جاءت تعبيراً عن نقمة شعبية ، تهدف إلى توظيف الثروات الاقتصادية توظيفاً مثمراً في مجتمع بلغ فيه التفاوت الطبقي درجة كبيرة ؟

الحق أن مثل تلك الثورات كانت ذات مبادىء اجتماعية وانسانية سامية . ـ وإذا كان الذين كتبوا التاريخ الرسمي لعصورهم أو للعصور التي سبقتهم قد غمطوا تلك الحركات الشعبية حقها لسبب أو لآخر ، فإن الوجدان الشعبي العربي قد احتفل بأبطال تلك الحركات ، وأناط بهم مسؤولية اجتماعية جليلة ، فرأينا هؤلاء الأبطال ينتصرون لحقوق المظلومين ، ينتزعونها من الاغنياء المتجبرين ، باذلين في سبيل ذلك الروح والدم . . . بل إن هذا الوجدان الشعبي راح يدير حول هؤلاء الابطال حكايات وقصصاً تدل على نبالة أهدافهم ، وكريم سجاياهم . . فهم ليسوا قطاع طرق أو لصوصاً ينهبون أموال الناس ، كما صوروا ، بل أفراداً أنبتتهم بيئة ذات تقاليد وقيم إنسانية ، عقدت لهم لواء الزعامة والبطولة للقضاء على الفساد والظلم الاجتماعي . . . .

وهكذا راح ادبنا الشعبي ينسج حول هؤلاء الأبطال من « الشطار والعيارين » ـ كما كانوا يسمون ـ حكايات شعبية رامزة ، يختار لها الحقب التاريخية التي استشري فيها الفساد أكثر من غيرها ، كما حرص على أن يجعل مسرح هذه الحكايات الحواضر العربية التي حفلت بألوان الحضارة المختلفة ، إيماناً منه بأن هذه الحواضر الغارقة في

الترف واللهو ، قد أدارت ظهرها للجماهير التي تشكو الفاقة . . .

ولقد التفت إلى هذا الجانب الوضّاء من تراثنا الشعبي الدكتور محمد رجب النجار في كتابه « حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي » الذي صدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت في سبتمبر ١٩٨١ . . . فراح هذا الكاتب « يلملم » ما كتبته المصادر الأدبية والتاريخية عن سيرة هؤلاء « الشطار » أو « العيارين » ـ كما كانوا يسمون ـ ثم يعكف على دراسة ما تجمع لديه من مادة ، محاولاً بمنهجية علمية القاء الضوء على أهداف تلك الحركات الشعبية ، وتأثيرها في المجتمع العربي آنذاك . . إلى جانب ما تركته من تأثير أيضاً على الأدب الشعبي . .

يضم الكتاب مدخلاً ، وأربعة فصول . . . في الفصل الأول يتحدث المؤلف عن « الشطار والعيارين في التراث العربي » بعد أن جمع لمحات سريعة عن بدايات ظاهرة الشطارة والعيارة تلك الظاهرة التي ترتد إلى حركة شعبية ظهرت بين العامة متمردة على الدولة والمجتمع . . . .

. . ومن خلال هذا التتبع لتلك الظاهرة في التراث ، ندرك أن من كان يطلق عليهم اسم « الشطار » أو « العيارين » ليسوا لصوصاً تقليدين يجب أن يطالهم القانون ، بل ثواراً رافضين لواقعهم الاجتماعي والسياسي . . على أن المؤلف هنا يستدرك فيقول : (. . ولكن هذا لا يعني ـ أيضاً ـ ان كل الشطار والعيارين أبطال أو شرفاء ، أو أن جميع حركاتهم كانت انتفاضات ثورية واعية . .فذلك ما لم أقل به ، بل ما من انتفاضة شعبية إلا وقد اندس فيها كثير من المشبوهين . .) .

وهذا صحيح ، فثمة حركات مشبوهة كانت تندس بين جماعات العيارين وكان أصحابها « أدوات في يد السلطة » . . . . مثل هؤلاء لا يمكن عدهم من الشطار أو العيارين الشرفاء . . أما الفصل الثاني من الكتاب ، فقد تناول فيه المؤلف « الشطار والعيارين في التاريخ » . . . وهنا يحدثنا عن الجذور التاريخية والاجتماعية لتلك الطوائف الاجتماعية التي خرجت على القانون الرسمي لتعيد صياغة النظام الاجتماعي والاقتصادي صياغة محكمة . . . تلقانا في البداية جماعات « الصعاليك » التي ظهر نشاطها في العصر الجاهلي . . وكان هذا النشاط ـ كما يقول المؤلف ـ فردياً في جوهره ، في حين كان نشاط العيارين ، أو من سُموا « بالزعار » في العصور اللاحقة

جميعاً . . كذلك كانت بطولة الصعاليك فردية ، بينما اعتمدت حركة العيارين البطولة الجماعية . . . ومن المهم هنا أن نشير إلى أن هاتين الظاهرتين : «الصعلكة»، في الجاهلية ، « والشطارة والعيارة » في العصر الاسلامي « تعكسان حلماً جماعياً من أحلام الفقراء في العدالة الاجتماعية والسياسية . . . حلماً تتلاشى معه تلك الهوة السحيقة والبغيضة التي تفصل بين أقلية تملك معظم الثروة ، وأغلبية ساحقة تقتات الفقر والحرمان . . .

يمضي المؤلف بعد ذلك في رصد تطور ظاهرة العيارة في العصر الاسلامي في أشهر الحواضر الاسلامية آنذاك . . فنرى اتباع هذه الحركة في العراق يسمون «بالعيارين والفتيان والشطار » وفي الشام يسمون « بالأحداث » . . بينما يطلق عليهم في مصر اسم « الحرافيش والزعر » . . ومهما اختلفت التسميات ، فإن الغايات السياسية والاقتصادية كانت واحدة . . من هنا تعرضت تلك الحركات لأقسى أنواع القمع والاضطهاد على أيدي الحكام والسلاطين الذين أدركوا خطرها على امتيازاتهم الطبقية ، فهبوا يقاومونها بالتعاون مع كبار التجار والملاك . .

وليس أدلّ على أن هـذه الحركات الثورية لم تنشأ طمعاً في الاطاحة بالأنظمة السياسية العربية الحاكمة من أنها كانت خلال الازمات العنيفة التي تتعرض لها الخلافة الاسلامية ، والسيادة العربية للاطماع الخارجية ، تقف إلى جانب الخليفة العربي المسلم ضد العناصر غير العربية الطامعة في السيادة السياسية . . وهناك شواهد كثيرة تؤيد ذلك ، فحين تقدم عضد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري نحو بغداد يريد احتلالها ، وضمها إلى فارس ، هب العيارون يدافعون ببسالة عنها بالرغم من أنهم لم يكونوا راضين عن السياسة الداخلية للخليفة العباسي . . وقبل ذلك ، وفي أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون ، نراهم ينضمون إلى الخليفة الأمين في حربه ضد أخيه المأمون ، لأنه يمثل العنصر العربي الذي ينبغي أن تكون له السيادة على أرضه . . . . ما معنى هذا ؟ معناه أن تلك الحركات الثورية قامت فعلاً من أجل القضاء على الفوارق الطبقية التي ورثت الغنى لفئات محدودة من المجتمع في حين ورثت الفقر والهوان للغالبية من أبنائه . ويخطىء كل من يتهم قادة تلك الحركات بأنهم من الطامعين في تعكير صفو الأمن جنياً لمكاسب سياسية . . .

يتحدث المؤلف بعد ذلك ـ وفي الفصل الثالث من الكتاب ـ عن « حكايات

الشطار في الأدب الشعبي العربي » . . . وهي الحكايات التي احتلت مكانة متميزة في الأدب الشعبي الشفوي والمدون فيما يعرف باسم أدب الشطار والعيارين . . . ومن خلال تلك الحكايات والسير ، يعكس الوجدان الشعبي العربي رؤ يته للقضايا السياسية والاجتماعية . . وهي رؤ ية تتفق وطموح العيارين أو الشطار في تغيير الواقع الاجتماعي والاقتصادي واقامة مجتمع جديد ، يوفر العدالة للجميع . . ففي حكايات « ألف ليلة وليلة » مثلاً نرى العيارين الشرفاء يصدرون في سلوكهم عن تكافل اجتماعي . . . كما أنهم حين يسرقون لا يسرقون لغاية السرقة . . . . وعلى الطرف الآخر من تلك الحكايات يلقانا لصوص حقيقيون لا يتعاطف معهم القاص الشعبي لخيانتهم وغدرهم .

يستعرض المؤلف بعد ذلك بعض السير والملاحم الشعبية العربية كسيرة « عنترة ابن شداد » و« سيرة حمزة العرب » و« سيرة الأميرة ذات الهمة » « وسيرة الظاهر بيبرس » و« سيرة علي الزيبق » وغيرها من السير التي احتفلت ببطولة الشطار الشرفاء « كعلي الزيبق » رمز البطولة الشعبية في أدب الشطار ، وغيره ممن توسلوا بالحيلة والدهاء في تحقيق أهدافهم الاجتماعية النبيلة .

أما الفصل الرابع والأخير من فصول الكتاب ، ففيه يدرس المؤلف « أدب الشطار العربي » دراسة فنية . . . والحق أن هذا الفصل أهم فصول الكتاب . . . . وفيه استعراض للسمات الأدبية التي تميز بها هذا الأدب ، ومن أبرزها : بساطة الحدث في بعض الحكايات ـ كحكايات جحا ـ أو تعقيده ، كما هو الحال ـ في قصص ألف ليلة وليلة . . . واستفادة هذا الأدب من الحياة اليومية الواقعية . . . فمغامرات الشطار مغامرات واقعية ، وإن توسلت احياناً ببعض الخوارق ، فذلك «لإضفاء عنصر الدعاية في بعض المواقف » أو لاثارة سخرية البطل من الشخصيات التي تتوسل بهذه الخوارق . . . .

وكشأن كل الدراسات العلمية التي لا تسلم من بعض المآخذ ، فإن هذه الدراسة بالرغم من تميزها يؤخذ عليها إفرادها فصلين لموضوع متشابه تقريباً ؛ إذ كان بامكان الفصل الأول الذي يتحدث عن « الشطار » في « التراث » أن يستوعب موضوع الفصل الثاني « الشطار » في « التاريخ » . . وفي تقديري أن إفراد هذين الفصلين للحديث عن الجذور التاريخية للشطار هو الذي أوقع المؤلف أحياناً في بعض الاستطراد ، فقد كان يكفي فصل واحد للقيام بهذه المهمة . . .